أضواء على خطاب الرئيس سركيس

الطبقة القديمة تبني نظامها الجديد

« انني ادرك تماما شعور اللبنانيين في ذكرى الاستقلال ، ولكن من الواجب تقديم العقل على العاطفة » .

بيار الجميل ، «النهار»، ١٩٧٦/١١/٢٢

من المفيد ، احايين كثيرة ، ان تؤخذ الدروس والامثولات ، من المخلصين بحكمة ، لمصالح الطبقة التي يمثلونها، وفي هذا المجال ، فان تقديم العقل على العاطفة ، « اقتداء » بحكمة بيار الجميل الممثل المخلص للكومبرادور ، سوف يساعد الثوريين كثيرا ، على رسم الخط السياسي السليم ، والمواقف السياسية الصحيحة ، من اجل قيادة الطبقات الشعبية التي يمثلونها ، نحو تحقيق اهدافها وامانيها .

ومن اجل الوصول الى تحليل سياسي سليم ، لما يجري على ارض وطننا لبنان ، في مجال اعادة بناء النظام الذي انهار ، بأشكال اقوى واضمن ، هذه العملية التي تقوم بها الطبقة الكومبرادورية بقيادة الرئيس الياس سركيس ، لا بد من اتباع منهج علمي ، بعيد كل البعد عن التحليل الارتجالي الخاضع لردود الافعال ، وبعيدا عن اي تشنج يضر بالنتيجة المتوخاة .

فالمنهج العلمي المقصود ، يؤكد على دور الاشخاص ، ولكن ضمن عملية سياسية واقتصادية واجتماعية محددة ، في سياق تاريخي محدد ، وهذا المنهج نفسه ، ينفي وجود الادوار الشخصية او غير الشخصية ، المجردة عن الواقع ، والمعلقة في الهواء بعيدا عن مصالح الطبقات الاجتماعية واهدافها .

ولكن هذا نصف المطلوب ، والنصف الاخر يقول: اذا كان الاشخاص ، بكل ما يميزهم يلعبون الدور في خدمة طبقة اجتماعية محددة ، تجر بسياق تاريخي محدد ، فهذا يعني انهم مؤهلون للعب هذا الدور ، وقادرون على فهم وتحديد ما هو مطلوب .

وبذلك يكون النصف الاخر المطلوب ، هو فهم هذه العملية التي تدور ، وفهم العلاقة والتفاعل الجدليين ، بين الظروف التاريخية المحددة التي تمر بها الطبقة في مختلف المجالات ، وبالتالي الاهداف المحددة المطلوبة ، وبين فهم واستيعاب الشخص الممثل والقائد للمطلوب منه وتنفيذه لذلك ، بسبب من المميزات والمواهب التي يتمتع بها .

اذ لا يكفي القول بان الياس سركيس يمثل طبقة وينفذ تطلعاتها واهدافها ، بل يجب رؤية وتحليل كيفية سير هذه العملية ، على ضوء التعقيدات التاريخية الموجودة ، وعلى ضوء الواقع المعطى نفسه .

■■ جذر المواقف الخاطئة

بعد قيام العميد عزيز الاحدب بمهزلته الانقلابية في ١١ اذار الفائت ، ومطالبته بضرورة استقالة فرنجية من موقع الرئاسة ، إندفعت غالبية القوى والهيئات ، الى تحديد موقفها من هذه المسألة ، وبرؤية الخلفيات الحقيقية الكامنة وراء هذه المواقف ، نلقي ضوءا على بداية الطريق نحو فهم الكثير من القضايا المطلوبة .

قام الاحدب بمحاولته تلك تحت شعار « اعادة اللحمة الى الوطن والشعب » ، اما الحركة الوطنية فكان موقفها ان فرنجية يجب ان يستقيل ،ورفعت يومها بعض اطرافها الاساسية شعارا يقول ، « ان استقالة فرنجية هي مطلب شعبي عام » .

واذا كان من المشروع امام الحركات الوطنية والثورية ، ان ترفع شعارات ضد اشخاص في قمة السلطة في لحظا ت تاريخية محددة من مسيرة النضال ، فان البعد الصحيح لمثل هذ ه الشعارات، هذا البعد الذي لم يأخذه رافعو شعار الاطاحة بفرنجية بعين الاعتبار ، هو ربط الشعار بشكل وثيق ، وخلال عمليات التحريض والتعبئة الجماهيرية ، بالاطاحة بكل الطبقة وبنظامها الذي يمثل فرنجية احد اسوأ رموزه السلطوية المتخلفة.

كذلك ينبغي الاخذ بعين الاعتبار ، ان الطبقة نفسها يمكن ان تضحي بأحد رموزها ، وان تقدمه « ككبش محرقة » في اتون الصراع الدائر ، وذلك يكون في سبيل انقاذ الطبقة نفسها من بعض العواقب الوخيمة التي يمكن ان يؤدي اليها بقاء هذا الشخص في موقعه ، وعدم جدارته في تمثيل تلك الطبقة ، وفي قيادة سفينتها ضمن العواصف العاتية ، وصولا الى الشاطىء الامين .

وكان فرنجية يومها ، بكل تخلفه الشديد ، وبتعنته ورفضه العفو عن الاقسام التي كسرت وحدة الجيش الرجعي ، ورفضه كذلك اقتسام السلطة بشكل « عادل » بين الفئة المارونية من الطبقة التي يمثلها هو من الناحية الاساسية ، وبين الفئات المحددة الاخرى .

اما اطراف الحركة الوطنية التي رفعت ذلك الشعار ضد فرنجية ، فقد كانت خلفية شعارها السياسية كما يلي : ان فرنجية وعهده يمثلان مرحلة انتقال « الاقطاع السياسي » من التطور الرأسمالي ونقله الى الريف للنهوض به من التخلف الشديد . وكانت الشهابية اول جهد منظم لاقامة دولة عصرية متأثرة بنظام الجمهورية الخامسة في فرنسا » .

وهكذا فان هذه الاوساط تعتقد ان سركيس سوف يكمل ما عجز ت الشهابية عن اكماله في مجال اطلاق التطور الرأسمالي ، وبناء دولة عصرية حديثة بعد ارساء بعض المسحات الاصلاحية على النظام الحالي .

والحقيقة ان الذي كان حاصلا في لبنان، ايام مجيء الشهابية ، كان توسعا للسوق الرأسمالي العالمي ، عبر عنه بازدهار مصالح الكومبرادور اللبناني ، وحاجته بالتالي الى بعض الاصلاحات الفنية والادارية من اجل تسهيل الطريق امام هذا الازدهار ان ايصال الكهرباء الى بعض المناطق النائية في الجنوب وعكار على سبيل المثال ، لا يمكن اعتباره تطويرا رأسماليا للريف ، بمعنى ارساء علاقات انتاج رأسمالية في القطاع الزراعي ، ان ايصال الكهرباء الى مثل هذه المناطق ، قد تم لخدمة الكومبرادورية ، وفي سبيل فتح اكبر المجالات الاستهلاكية امام مؤسساته التجارية التي تستورد الاجهزة والمعدات وكل ما له علاقة بالكهرباء وانتقالها الى المناطق الجديدة .

وهناك الكثير من الامثلة الملموسة الاخرى ، والتي ليس هنا مجال ذكرها . بل سنكتفي بهذا المثال البسيط لنؤكد ان الشهابية جاءت لخدمة الازدهار الحاصل في مصالح الكومبرادور اللبناني ، وكل السوق الرأسمالي العالمي في لبنان والمنطقة العربية ، هذا الازدهار الذي يفرض بعض التطويرات والانجازات من اجل سوق اكبر واستهلاك اكثر .

وبالنسبة للظروف العربية المحيطة بالطبقة الكومبرادورية الحاكمة في لبنان ايام قدوم الشهابية ، فان تلك الظروف تميزت بوجود انظمة عربية تقود طبقات برجوازية في مرحلة صعودها الوطني وصراعها مع الامبريالية من اجل ان تستولي تلك الطبقات على سوقها الخاص ومن اجل ان تبني سلطتها الخاصة ايضا . لذلك فلم تكن تلك الظروف لتسمح للطبقة الكومبرادورية بخوض معركتها الى النهاية ضد الحركة الوطنية اللبنانية وضد تفجر النقمة الشعبية يومها ، في مواجهة كميل شمعون ومشاريعه التي تخدم الوجود الامبريالي وتسعى لتوطيده في المنطقة العربية ، خاصة وان هذه المشاريع كانت موجهة في جزء كبير منها ضد تلك الانظمة نفسها .

سركيس : هل يمثل الشهابية ؟

البرجوازية اللبنانية وانسجاما مع تحليل هذه الاطراف خاصة والحركة الوطنية بشكل عام للواقع اللبناني القائم والذي يعتقد بان هناك تطورا رأسماليا حاصلا في البيئة التحتية ولكنه لم يعكس نفسه على البنية الفوقية التي يهيمن عليها « الاقطاع السياسي » ، اي بتعبير اخر يعتقدون ان هناك تناقضا حادا بين مصالح الطبقة الحاكمة في لبنان،وبين نظامها الذي يحكم، اذا وانسجاما مع هذا التحليل ، فان الحركة الوطنية كانت تستهدف بشعارها ، ضرب « الاقطاع السياسي » وعلاقاته الطائفية المتخلفة وذلك من اجل تطور افضل يتيحه هذا الضرب امام البرجوازية اللبنانية لكي تبني نظاما برجواريا عصريا .

والحقيقة ان رجالات النظام اللبناني ، بمجرد ان يصبحوا في موقع الحكم والسلطة ، ومهما كانت مواقفهم وطبيعتهم ، فانهم يتحولون الى ممثلين للطبقة الكومبرادورية ولمصالحها واهدافها ، وان امثال كامل الاسعد وسليمان فرنجية وشمعون والجميل ... الخ .. لا يمثلون مصالح ما يسمى بـ « الاقطاع السياسي » ، وذلك رغم اصولهم البعيدة ، الاقطاعية او العشائرية المتخلفة ،انهم يمثلون بالضبط الطبقة الحاكمة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا .

وحتى لو تجاوزنا هذا التحليل الخاطىء لطبيعة الطبقة الحاكمة ولنظامها ، لنسلم مع الحركة الوطنية جدلا ، بان الحاصل في لبنان ، احد اسبابه وجود الاقطاع وعلاقاته المتخلفة ، فكيف تستكمل مهمات الاطاحة بهذا الاقطاع وعلاقاته الطائفية ، هل بترشيح ريجون اده بدلا من الياس سركيس في انتخابات نيابية يقوم بها مجلس يمثل تجمعا مكثفا لما تسميه الحركة الوطنية بـ « الاقطاع السياسي » ؟. ام ان استكمال حلقات هذه الثورة يتم بالاطاحة بالنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي السائد ، وبكنس بقاياه وعلاقاته الاجتماعية المتخلفة في المجتمع وخلاياه ، وكل عفنه الطائفي والعائلي والعشائري ... الخ ؟

■■ موقف الحركة الوطنية من الشهابية ومن سركيس ؟

يسود اليوم كثيرا من الاوساط الوطنية اللبنانية رأي خاطىء يعتبر ان سركيس هو امتداد تاريخي وسياسي للشهابية ، التي هي بنظر هذه الاوساط وكما عبرت جريدة « السفير » في تحليلها اليومي ليوم نهار ١٩٧٦/١١/٢٢ «جاءت الشهابية بمحاولة اطلاق

■■ الشهابية وسركيس والوضع الراهن

لقد تبدلت الظروف من عام ١٩٥٨ الى يومنا هذا ، وعلى مختلف الصعد المحلية والعربية والعالمية ، حتى غدت شيئا مختلفا تماما عن ظروف الشهابية وظروف قدومها .

فالطبقة الكومبرادورية اللبنانية ، التي مرت بفترة طويلة نسبيا من الازدهار ايام الخمسينات والستينات ، وصلت الى مأزق حاد قبيل تفجر الاحداث في ١٣ نيسان ١٩٧٥ .

فالازمة الرأسمالية العالمية المتفاقمة ، والتضخم والغلاء الفاحش ، قد انعكس بشكل خطير على السوق اللبناني المرتبط بالخارج بشكل وثيق ، كما ان قطاع الخدمات الذي يشكل ٧٥ بالمئة من مصالح الطبقة هذه ، هذا القطاع قد اشبع الى حد الاتخام ، ولم يعد قادرا على استيعاب اية طاقات بشرية كبيرة ، مما ولد الكثير من الازمات الاجتماعية الحادة في الداخل ، ادت الى صدامات عنيفة مع السلطة اللبنانية واجهزتها القمعية .

وعلى الصعيد العربي ، فان المد الوطني الذي كان يلعب دورا اساسيا في اغذاء وتسعير الروح الوطنية والعداء للاستعمار لدى الشعب اللبناني ، والذي كان يلجم توجهات النظام اللبناني في سبيل تصفية هذه الظواهر ، هذا المد الوطني قد انتهى الى غير رجعة ، وانتقلت الانظمة التي كانت تمثله اساسا ،الى ضفاف الاعداء التاريخيين لتطلعات الجماهير العربية ، واهدافها في التحرر الكامل من الهيمنة الامبريالية ، وفي تحرير الوطن المحتل في فلسطين ، وباقي الاراضي العربية المحتلة ، وفي اقامة انظمة تقدمية تستجيب لمثل هذه التطلعات والاهداف .

وهذا مما يفسر الى حد كبير ضخامة وشراسة الهجمة الفاشية في لبنان ضد الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . كذلك فان الامبريالية العالمية ، وزعيمتها الامبريالية الاميركية ، امام الهزائم التي لقيتها على يد الشعوب المناضلة في فيتنام وكمبوديا ولاوس وانغولا ، وامام ازدياد حاجتها الماسة للنفط العربي وللسوق الاستهلاكي العربي ايضا . لا تستطيع الا ان تخوض حربها حتى النهاية ، وخاصة في بلد كلبنان يشكل بؤرة خطرة ، تهدد المنطقة بالتفجر في حال قيام نظام وطني يحمي الثورة الفلسطينية ويتحالف معها فيه .

وامام هذه الصورة ، اي نظام سوف يبنى في لبنان ؟ وما هو موقع سركيس ضمن هذه العملية واي دور يجب ان يلعبه في قيادة عملية بناء النظام ؟.

ان النظام الذي سيبنى ، هو بكل تواضع ، ومع التقدير للرئيس سركيس ولمدرسته الشهابية، هو نظام فاشي رجعي معاد للثورة الفلسطينية ، بكل ما تمثله . ومعاد للحركة الوطنية اللبنانية ولتطلعاتها وتطلعا ت الشعب اللبناني .واعادة بناء هذا النظام لن تتم الا بتصفية كل ما هو وطني في لبنان وازالة مكامن الخطر الحقيقي الذي هدد الوجود الامبريالي في المنطقة العربية برمتها .

وامام طبيعة الظروف المحيطة ، وطبيعة النظام المطلوب بناؤه على اساس تلك الظروف ، وكامتداد لها في لبنان ، الذي اجمعت كل الاطراف المعادية على ان الوضع الشاذ فيه خطير ، وغريب ، وينبغي تلافيه ، امام هذا نستطيع ان نلاحظ اللقاء التاريخي بين الدور المطلوب ، وبين شخص كسركيس يتميز بنوع من « الحياد » بين اطراف الصراع ، وهو بالتالي الاكثر قدرة على العمل بأمان وبأقل امكانيات الخطر . كما انه الاكثر ادراكا للوضع العربي ، والاكثر انسجاما مع اهداف المحور السعودي - المصري - السوري في لبنان ، ومن هنا نستطيع ان نفسر الاجماع العربي على جدارة سركيس في موقع السلطة والتقرير . وعليه فسركيس يربط بين مسألة الوجود الفلسطيني في لبنان ، وبين التسوية الاستسلامية التي يقودها المحور السابق ذكره ، هذه التسوية التي لا تقدم ولن تقدم بالفعل ، سوى التصفية الكاملة لطاقات الشعب الفلسطيني الثورية .

ان تركيز سركيس في رسالته الاخيرة على الامن، وتقييمه له بأنه « قيل رغيف الخبز » يلقي ضوءا ساطعا على كثير من الانجازات المطلوبة في سبيل اعادة بناء النظام .

ان ما يهدد الامن بنظر الحلف المعادي كله ، هو الوجود الثوري للمقاومة الفلسطينية المتحالفة مع الحركة الوطنية اللبنانية ، وهكذا فكيف ستتم عملية فرض الامن ؟

كما ان تركيز سركيس في رسالته على تعزيز دور المصارف في لبنان ، يوضح كثيرا ، اية شريحة اقتصادية ستكون في مواقع السلطة والسيادة في لبنان ، ويوضح ايضا لمن سيبنى النظام من جديد .

وغاية الامل ان تؤدي هذه الايضاحات الى ازالة الكثير من الاوهام ، في اذهان الكثير من القوى التي دفعت في عملية التصدي للنظام وعصاباته وللنظام السوري الاف الشهداء الابطال .

والامل في ذلك تعززه الثقة في الجماهير وفي الدور الذي ينبغي ان تلعبه القوى الثورية ، ولا تفرزه بالطبع مواقف الاصلاحيين ، الذين وصلوا اخيرا الى قناعة بأن القاء السلاح جانبا ، سيفسح المجال اما لاعادة السلام الى الربوع اللبنانية ، والذين يؤكدون انهم لم يحملوا السلاح في سبيل تحقيق اهدافهم ، بل دفاعا عن النفس ، ان عدم المراهنة على نهج القيادات الاصلاحية له ما يبرره واوله شهادة حسن السلوك الذليلة هذه التي يحاولون تقديمها اليوم .

ان عدم المراهنة على هذه القيادات ، لا يعني اتهامها كما يفعل البعض من اليساريين الطفيليين بالتواطؤ مع الاعداء .

ان هذه القوى ، هي قوى وطنية ومستهدفة من قبل المؤامرة ، وهذا صحيح ، لكنه غير كاف ، فمن اجل ان تلعب هذه القوى دورها الحقيقي الذي يخدمها هي قبل كل شيء ، ينبغي هزيمة خطها ومنطقها في المواجهة ،وهذه مهمة الثوريين، الذين يناديهم التاريخ اليوم ، ويضعهم امام الامتحان الخطير والحاسم .

■■